أبيقــور

بقلم سليم خياطه

> وأرسطبس له في اللذة مقالة تباين مقالة آنتيثنس ، ومقالة أبيقورس تباينهما معاً
> من « بيرهون »

ليس في الوسع الحديث الطويل عن أبيقور الالهي ، وهو ذلك الحكيم العميق العقل الذي أنشد لوقريطيوس الشاعر لمجده أغنية ملحمية بحجم سفر عادي في سبيل حقيقة الطبيعة والانسان . فما عندي له سوى خطرات من وحي اسمه وفكره وما ظلما به من سوء النسبة . والحق ان الكلام عنه ، رغم قلّة ما أبقت عليه القرون من آثاره نفسه ، ليمتدّ ويتشعب ويطول جدّاً . أليس ان واحداً من أعجب تلامذته المتأخرين ، الراهب « غسندي » ذاته ، لم يستطع ان يكفي الرغبة في تعليم مبادئه إلاّ بأن يدعو كصاحب مدرسة اختصاصية فريدة في بابها ، تحت ظلال جدران « الكوليج دي فرانس » في باريس ، حيث تخرّج على فكره النيّر كوكبة من النجوم اللامعة فيهم أنصع نفسين أبيقوريين ظهرا في وقتهما : موليير الروائي وفولتير الاديب ؟

وأليس ان « برنيه » ، وهو تلميذ التلميذ ، لم يستطع ان يشرح حتى غسندي ذاك إلاّ كما قال فرانس في « الحياة الادبية » : « برنيه هذا الذي كان يلقّب بالفيلسوف الظريف ، الذي جاب سوريا ومصر والهند وفارس ، وخدم كطبيب عند اورانغ زيب ، والذي كما ذهب الى كل مكان رجع من الكلّ ؛ فكان عنده كثير ما يقول ، وكان يدرس من غير انقطاع ، وكان قد [illegible] الثقة [illegible] دي لاسابليير » موجزاً لنظام استاذه غسندي ، وهذا الموجز لم يكن أقلّ من ثمانية مجلدات » ؟ فانظر ! هل سمعت ؟ ثمانية مجلدات هي موجز في تلميذ التلميذ ! ..

إذن ، فلنفتش عمّا هو بعد اوجز من ذلك . ولمن أراد شيئاً اقلّ كتمهيد أوليّ يتعرّف به الى أبيقورنا ، فعليه بالكتاب الصغير البديع الذي ألّفه الاسقف « فينيلون » عن فلاسفة اليونان القدماء اللامعين في زمن لويس الرابع عشر ( ) . ففي سلسلة هذه التحفة الادبية

Fénelon-Abrégé de la Vie Des Plus Illustres Philosophes de L'Antiquité ( )

النفسية يتاح للقارىء العادي ان يُلم بشيء مقتضب سهل عن شخص ايقور الكريم ، وبشيء من النزعات الآراء والنظريات العقلية العبقرية التي ظهرت له فيها ومملت اليه مدرسته « الليسيبوسية » « الديموقريطية » ، تلك الآراء والنظريات التي لا تزال منذ أطلقت أعمدة أثينا الرخامية الذهبية على الفين واربعماية سنة مقبلة من تطوّر فكر الانسان وعجمته حتى هذه الساعة : يثبت بعضها بتقريرات ومذاهب وتفسيرات علمية مقبولة ؛ وبعضها يكتشف لها حقائق ما لاح له من أسرارها ، وبعضها الآخر ايضاً يتجه اليها البحث بكل قواه لشدة دلائل الصحة فيها وصعوبة قبول التفكير الفلسفي الجدلي (الديالكتيكي) والمادي العلمي لسواها من النظريات والمعقولات التفسيرية لحركة الوجود وتشكلاته . من الامثلة على كل هذه الالتماعات الرائعة بضعة التالية : الذرّة والجوهر الفرد ، الكهرباء وتفسيرها ، عمر الارض ونظرية طبقاتها ، التطوّر والارتقاء في مبدأي تنازع البقاء والتعاون ، حركة المادة الديالكتيكية ، الاحلام كظاهرة نفسية ومظهر عقلي ، نشوء فكرة الالوهية وتطوّرها ، نشوء المدنية وظهور المجتمع ، الخ . الخ . . .

بيد ان كتاب فينلون ، لسوء الحظ ، غير متيسر لابناء العربية الا في طبعة مندثرة صدرت منذ مائة سنة ونيف . إذ لا أظن أحداً ترجمه الى العربية حتى اليوم غير كاتب اسمهُ عبد الله بن حسين ، كان من « عدة » ارسلهم محمد علي باشا — على حد تعبيره — « الى الديار الفرنجية » . « شاع أمرهم في الأنام ، فحصلوا قدراً جسيماً من اللغات والفنون ، وجلب لهم (محمد علي باشا) كتب العلوم الخ . . . » وقد تمَّ طبع هذا الكتاب في سنة ١٢٥٢ هـ . تحت اسم « مختصر ترجمة مشاهير قدماء الفلاسفة » ، بالتنويه الى تعريبه ، لكن من دون ذكر مؤلفه ، وذلك في دار الطباعة التي أنشأها محمد علي ببولاق . على أننا نكتفي الآن بما يلزمنا من كتاب فينلون هذا في نصه عن « أيقور » ، وهو لا يتعدى عبارته التالية التي تترقرق في لغة صاحبها الفرنسية عذوبة الماء الزلال في ساقية الواحة او نبع الجبل . قال :

> « ابتاع أيقور حديقة جميلة ، وأخذ يثقفها بنفسه . فيها أنشأ مدرسته وعاش مع تلامذته حياة حلوة ورضية ، فكان يعلمهم وهو يتنزّه أو وهو يشتغل . . . لقد كان حلوَ الطبع مُحَبَّباً الى كل الناس . . . وكان يعتقد بأنهُ ليس ما هو أشرف الانسان من أن يزاول الفلسفة . »

ثم مع هذا القول الجليل لا يسعني الا أن أورد ايضاً حكم القديس اغسطينوس على أيقور

حيث قال في « اعترافاته » وهو يتكلم على تفتيشه عن المبادىء والتعاليم التي ترتاح اليها نفسه (وهي المرة الوحيدة التي يذكره فيها) ، قال « : كنت أتحدث مع صديقي « أليبو » و « نيبريديو » عن حدّ الخير وحدّ الشر . وفي نفسي ان أبيقور هو الذي كنت أقلده غصنَ النخيل[1] لو لم أكن أعتقد بديمومة حياة النفس (يقصد خلودها بعد الموت) وبالعقوبات (يقصد الأخروية) على أعمالنا ، وهو الاعتقاد الذي رفضهُ أبيقور » [2]

إقرأ ايضاً ، بعد رجلي الكنيسة هذين ، قول المؤلف الاندلسي ، القاضي ابي القاسم بن صاعد في كتابه الظريف « طبقات الامم » . فان هذا الكاتب الذكي ، على قلة ورود المضبوط المتقن من ينبوعه في مواضيع الفلسفة اليونانية عند كتابنا الاقدمين ، قد أعطانا عبارة فيها من الصحة عن أبيقور بقدر ما فيها تماماً من ضوع صفحته . قال : « وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الغرض الذي كان يقصد اليه في تعلم الفلسفة ، فشيعة افيقورس [3] ، ويسمون اصحاب اللذة لانهم يرون الغرض المقصود اليهم في تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها » [4]

تأمل ، الآن في تينك الشهادتين الوضاءتين بحق فيلسوفنا تصدران عن رجلين صادقين من آباء الكنيسة ، وتأمل فيما وصل الى القاضي بن صاعد من خلال ركام القرون الوسطى من ناحية حقيقية عن أبيقور المجهول : هي أن « شيعته » على لغته ولغة أغلب الكتاب السابقين حتى « مونتان » ، رأت اللذةَ في اللذة التابعة الى معرفة الفلسفة . ثم انظر فيما اشتهر عنهُ ووصم به عند جهلاء الادعياء وعثَر في المعرفة وسخفاء التفلسف من سوء الصيت وشهوانية الدعوى ، حتى صار أبيقور منسوباً اليه عدواناً ومجنياً كل رقيع من مجانين متطرفي اللذات عند الرومانيين ، أولئك الذين قصّر حتى « هوراس » الشاعر في هجوهم وتهزيئهم ، وان كان هو من جهلةٍ قد تبعهم أيضاً في إساءة فهم ذلك المعلم الكريم ، فلاك اسمه بغير حقٍّ ومرّغهُ في حظائر الخنازير

طبعاً لم يؤثر هذا الصيت المشوّه في تحريف حكم المفكرين الانسانيين الثقات الأُصلاء وتقديرهم . ففرنسيس باكون ، مثلاً ، إذ عبر بذكر أبيقور في مقالته « عن الالحاد » ومقالته الاخرى « عن الوحدة في الدين » ، لا يبدي نحوه الا انكاره « السني » الصبغة لشهرته الفلسفية عنده ، ولا يحفظ عنهُ الشناعة الشهرة الانتهابية المشوّهة ، بل يبدو عليه الميل المكتوم بتحذّر محافظٍ الى رأي أبيقور وتفضيله ، ويعلن بجرأة اعجابه العالي بقوله البديع : « ليس الكفر في رفض الاعتقاد بآلهة السواد ، بل الكفر في الاعتقاد بالآلهة ما يعتقده السواد فيها »

---

(١) الباقرة ، ورديز الاسبقة والاولية (٢) الاعترافات — ترجمة الكتاب السادس

(٣) « أفيقورس » هو أبيقور (٤) طبقات الامم — طبعة اليسوعيين ... بيروت ١٩١٢

غير اننا ، من جهة اخرى ، نجد ان السمعة الرديئة التي لصقت بالايقورية أثرت حتى في مفكر مرتاب حر مثل مونتاني . فهو انه ، مثلاً ، يطرأ عليه ذكر ايقور ، في فصله الكبير « الاعتذار عن رايمون سيبون » فيسحب تأملة فلسفية تحققت صحتها في اكتشاف جزر الهند الغربية ، فانه ، على جري عادته في تحولات افكاره السائحة مع كل ريح قد تصل به مكاناً او قد لا تصل ، يعود في مقالة « عن بعض ابيات لفرجيل » — في معرض الكلام عن بهيمية الشهوات ، وحديث الامبراطور الذي افتض عشر فتيات في ليلة واحدة والامبراطورة التي رغبت في استبدال خمس وعشرين رجلاً في ليلة واحدة ايضاً — الى ذكر ما سمّاها « فرقة أيقور » كشيء من الشاحة في هذا الباب مثل كل ما عدد غير ذلك من كنايات وافعال !

اما نحن نعلم اليوم بأنه يحدث في التاريخ ان المنتسبين الى معلم انساني كبير ، او قل من ينسبون انفسهم اليه ، كثيراً ما يبدلون ويمسخون ويقلبون مبادئه ومنطق تعاليمه بحسب الهوى والمصلحة او نوع الضغط والاتجاه المادي والمعنوي والنفسي ، من عام يغير وخاص يشخصهم حتى ليصبح هؤلاء المنتسبون بما يخرجون به احياناً سبة كل عقل صاف وحكمة ناضجة ، وحتى ليتجلب ذلك المعلم الكبير — وهذا ما يؤسف — في نظر الكثرة التي تجهله ويصب عليها تهم مستعصيات الفروقات والتطورات والاستنتاجات ، بجلباب خزيهم ومآزمهم . لقد اشار لينين الى ظاهرة كهذه بشأن ماركس والحركة الاشتراكية من بعده في كتاب من آخر كتبه . ومن الامثلة أيضاً على حالة كهذه يسوع المسيح و « المسيحيات » التي انتسبت اليه ، ثم كذلك أيقور وعديد ممن سموا انفسهم او سمّاهم سواهم « أيقوريين »

ومن الملاحظ أيضاً بخصوص أمثال هؤلاء المعلمين الكبار ان من ينتسبون اليهم ، ومن يشرحونهم ويلاحقون عليهم ، يختلفون ويتباينون في أمرهم اكثر من تباين الحق والباطل ! بل قد تكون مسحة تباينهم كالفسحة بينهم وبين من لا يطيقون حتى سماع رنة أسمائهم . وقد يفترقون الى فرق وملل ونحل تتناقض وتتعادى وتثير — لا أقول الثورات : اي حقبات الاصلاحيات الاجتماعية والاقتصادية ، والانتفاضات الشعبية والعلمية الكبيرة ، والتطور الانساني الارتقائي في العلاقات والفكر والشعور والعادات — بل تثير مذابح الفتن والحروب والعصبيات الفائرة الحادة ، وانواع الشقاق والتنافس السياسي والاقتصادي (والاعتقادي) وهذه الظاهرة كانت قوية جداً وطويلة التاريخ في المسيحية ، وفي المذاهب « الروحية » التي انتشرت كتنظيمات مدنية عموماً . ثم هي اصغر من ذلك ، ولكن أبلغ احتقاناً وأسرع انفجاراً وأفعل ، على الاقل ، نتيجة انسانية ومدنية ، في الاختلافات الاشتراكية التي حصلت من حول اسم ماركس . فالاولى تسببت وعاشت بالحرب والقتال ، والثانية رافقها ما في حياة

الاستهتار وكبائه من حروب وقتال . بيد ان من انتسبوا الى أبيقور، ومن لم ينتسبوا، ومن بعثت فيهم الرجفة حتى رنة اسمه، اختلف في هذه الظاهرة حظهم . فهم لم يتنابذوا فيما بينهم مصطدمين حول انشقاقات فهمهم لأبيقور، ولم يشتهروا بشيء من ذلك . انهم لم يتحاربوا ولم يتقاتلوا أبداً !

سبب ذلك ان جماهير الناس ما سمعت قط حتى باسم أبيقور، كما انه لم يكن لا في الحقيقة ولا في الفكرة المشوهة التي نسبت الى اسمه ذا قابلية على انتشار التأثير والمكانة في كل بيئة كانت ما تكون . فأبيقور على حقيقته وصفاء فلسفته يصعب ان يجد له مقعداً في بيئة أقل رقياً من جمهورية آثينا الخالدة في وقته، والأبيقورية المشوهة كعبادة بهيمية لا يعلو لها صوت الا في حلقات ضيقة، كحلقات المتخمين حتى القيء، الفارغي الرؤوس والقلوب، ومن كانوا على غفلتهم، في دور كدور انحطاط روما الامبراطورية أو بغداد العباسيين وممالك الطوائف . لذلك كان أصحاب الهوى والهوس في ابيقور صنفاً قليلين، على الاكثر المعروف من « المتعاظمين» المتكلفين . لم يأخذوا عنه الفلسفة، بل رأوا فيها تلطيخ به اسمه عنوان رذيلتهم وتسويغاً مبتذلاً لفسوقهم بقدر ما كانوا عليه من ابتذال

وعلى هذا، فان اثراً لم يتضخم وينتفخ لا لأبيقور ولا لهم في صلب حياتنا الماضية أو الحاضرة، في عقل بشرية متجمهرة، محتشدة، مستخفة، متحاركة بانياب الذئب وبالظفر الدامي على صولجان سلطتها ورغيف اطفالها . فحظ ابيقور في خمول الصوت وقلة الاعتراف عليه عائد، إذن، إلى ان الاعجاب به هو الاعجاب الفلسفي والاخلاقي السلوكي السامي، الهادئ، المتسامح، الذي لم يكن الا من نصيب قليلين فهموه وأحبوه، من فوق الاجيال والاكاذيب، حب صداقة شخصية، لا الاعجاب الطموح، الملتهب بنيران وجهالات الرغبات « المثالية » ولا توجيه وتكريم التفكير « العقائدي »[1] أو « التعليمي »[2] الجامد، المتعصي، المعلل الوجه بتلوينات مثالية، المبطن القلب في الواقع بنوع اتكالية وأنانية في الغرض (لنسمها : غائية Teleologisme آنية ! ..)

لهذه العوامل فقدت حقيقة أبيقور أكثر مما ضاعت حقيقة ماركس . ولو انه كانت لفلسفة أبيقور ونظرياته - كما لافكار ماركس الفلسفية الكبرى ونظرياته الاستنتاجية الاخرى من علاقة وثيقة صارخة بمصالح الناس الآنية والمباشرة، ولو انه كان لها ما لهذه من منطقة سريعة التفتح في صلب الحياة الاجتماعية (بل المتركبة أسرع حتى من منطقة الحياة الاجتماعية لانها مبنية

(١) ترجمة ستيتبها للفظة Dogmatic (٢) ترجمة نستعملها للفظة Doctrinaire و« التعليمي » في التفكير الحديث « كالعقائدي » في التفكير العتيق

على حركتها — او بالاحرى على ما في الامكان تبينه من الخطوط العامة واتجاهها في حركتها ، إذ تهبط وتتغلغل الى اعماق العيش اليومي بمختلف الاشكال والمجاري التي تصادم حتى كتصادم الحياة بعضها ببعض ، والتي تصبح في احتكاكها بحالة الجماهير وتسببها ذات قابلية على توليد عواطف اهتياجية شديدة —) اذن لكانت هرعت طوائف الناس ايضاً الى أيقور كما هرعوا الى ماركس، ولتعلقوا به كل طرف وجماعة على وحي ما بهم ونوع حماستهم دفعاً وجذباً ، وشداً ونتفاً ، وتقبيلاً وتخبيطاً !

لكن ماركس ، فيلسوف الثورة الصناعية والتحول الاشتراكي ، قد حظي بعصر ألصق به جمهوراً وأوسع وأكثر انشغالاً من كل عصر ، مع ان ايقور كان في زمنه شخصية تستوقف عناية الجماهير أيضاً (في أثناء حياته فقط) أكثر من كل فيلسوف يوناني آخر إلا « بيرهون ». ثم ان ماركس قد حظي أيضاً من الاتباع المدركين ، والمحبين المكملين له في قلب حياة زمنهم ، من لم يكن لهم من الجهل ولا من الطمع به كبير شخصي مثل الذين بلي بهم أيقور. وأيقور ، وان كان قد نال قسطاً من أرقى الذكاء البشري لدفع ظلمات وتجلية حقيقته ، إلا انهُ لم يدفع عنهُ أحد بمثل ما دفع هؤلاء عن ماركس ، وبمثل ما رفعوا من نبراس حقيقته من خلال ظلمات الدخان الدامي وعماء الحنق المتفشي

هذا ، وقد يستغرب ان يزعم زاعم بأن فلسفة أيقور تعيش في الماركسية . لكنها حقيقة واضحة لكل من يفهم شيئاً من الفلسفة غير الشهرة والاسماء . وان فلسفة أيقور تعيش فيها من وجهتي الاعتماد في النظر والتعليل على المادية وعلى « الديالكتيكية » . وتعيش فيها ، أيضاً ، بالطبع ، بما يتجه التفكير اليه ، على هذا الاساس المزدوج عندكليهما ، من نفس النتائج والآراء والمبادىء في نفس القضايا ، وان كانت قضايا الثانية ومسائلها الفرعية تختلف أغلبها وتزيد وتتعقد كثيراً عن قضايا الاولى ومسائلها . وذلك لان العصرين مختلفان ، لان مادة البحث والمعلومات الخاصة والمتيسرة تزيد وتترتب وتتباين في ثانيهما عنها في الاول منهما ، فتنزل الماركسية لهذا السبب من ميدان التفكير الفلسفي الى أقصى ميادين الاحتكاك الواقعي بالمجتمع ، ومن ثمَّ الى التحول الديالكتيكي الحركة بحسب ما تحكم مجاري تلك الميادين ومناقشاتها في مجرى صحة النظريات وسلامة الآراء والتصورات . أما فلسفة أيقور، وان كان هذا الاسلوب والتعليل هو أسلوبها وتعليلها بالطبع والامتياز ، الا انها ، لما بيّنا من أسباب ، تكاد تقبع في حقل التعليل والتفسير الكوني والطبيعي ، وفي مبدئية أخلاقية إنسانية عامة

لكنها على كل حال أصدق ما يأتلف ويتساوى من الاساس (اذا لم تكن الوحيدة التي تأتلف وتتساوى) من بين فلسفات جميع العصور السابقة مع أساس فلسفة الاشتراكية الحديثة

العلمية في المنطق والاسلوب ، ثم في الحدود الموضوعية التي تصل اليها معها في التعقيل والاستنتاج وأخيراً في اعتبار أخلاقية الفرد الاجتماعية . أما الوجهة الاخلاقية السلوكية هذه عند أبيقور ، فلا أتصوّر الماركسية وجدت أو يسهل عليها ان تجد للفرد سلوكاً أخلاقياً عملياً عيشياً في مجتمع أفضل وأعذب وأبلغ استقامةً اجتماعية مما نأتي في أبيقورية أبيقور ، تلك الحكمة الجميلة المتمثلة في العيش والاجتهاد والرفق بالذات والانسان ، تلك المبادىء والاعتبارات في الخير والشر التي ما أمكن الا ان تفوز باطراء أي رجل صالح عادل كان ، حتى من وُجد في مخيّم معاكسي أبيقور المذهبيين ، سواء في ذلك مخيّم أعلام التقوى والنظر المسيحي او كبار المفكرين الخلقي الصميم . ومن بين كبار المفكرين هؤلاء واحد احب ابيقور بعقله وقلبه ، واحب انا أن أتحدّث عنهُ قليلاً كتلميذ حقّ لذلك المعلم. هو اناتول فرانس ، الذي ترك في ميراث عالم الادب الرفيع بين اكاليل بدائعه كتاباً معجزاً صغيراً لقبه « حديقة أبيقور »

لم يرد في هذا الكتاب اسم للفيلسوف الاغريقي أو إشارة مباشرة الى أفكاره ، فيما عدا عناوين الصفحات ، غير مرتين او ثلاث . فما ذكره به في هذين المرتين او الثلاث ما جاء له في جملة من قوله : « ... في اسمى العقول ، واصفاها ، وأعذبها : في ديموقريطسٍ ، في أبيقورٍ ، في غسنديٍّ »[1] ، ثم ما وضعهُ على لسانه في ساحة تخيلها بين الفلاسفة تجري وسط الصبّرون والآس على ضفة نهر في « هاديس » ، عالم ظلال الاموات عند اليونان ، إذ جعله يخاطب ارسطو بعرض آراء متواردة عن خلود النفس وفنس الحيوان ، قائلاً :

— إيه ارسطو ! هذه النفس فيها (اي الحيوانات) هي مثلها عندنا فانية خاضعة للموت ، وفي ذلك سعادتها . أيتها الظلال العزيزة ! إصطبري منتظرةً في هذه الجنائن مجيء الزمن الذي تفقدين فيه تماماً ، مع فقدان الرغبة الفاسية في الحياة ، الحياة نفسها هي واوصابها . ألا فارقدي مقدماً في السلام الذي لا يعكره شيء »

وهكذا ليس هذا الكتاب سيرةً لابيقور ، ولا شرحاً ، ولا مجادلةً ولا نقاشاً ، ولم يأت فيه صاحبه حتى على لفظ اسمه إلاّ كما رأيت . وهو ، إن اردت الصحيح ، ليس الاّ حديقة أفكار لفرانس ذاته وردت عليه بروح التعقل الابيقوري وأسلوبه من غير شك ، إذ الكتاب بجملته يعبق برائحةٍ جميلة لجوّ « ديالكتيك » ابيقوريّ ماديّ ينتج منهُ للمؤلف منطق متناسق وحلقة آراء تستقيم في مجموعها مع وزن (او قل : دوزنة) الابيقورية الفلسفية ، اي ابيقورية ابيقور لا غيره

صحيح ان حلقة آراء فرانس هذه ، وجوها العابق بديالكتيك ابيقور ، ملوّنة بأصباغ

(١) تجوزت في تنوين هذه الاسماء لجلب معنى الافراد الى ذهن القارىء من حيث نوع الاسم

شتى متناسقة ومتعارضة ، وفيها مزيج من نكهات كثيرة ، رؤى وظنون ، وحق وبطل واختلف فيه من معاني الابيقورية : من حقيقة ما جاء منها لابيقور وعنه ، وما ائتلف وتناسق حقيقة مع منطق فلسفته ، في التعابير والنظرات التي يصدرها فرانس مباشرة ، او عما تستخلصه او تراه بنفسك في اثناء محاورات تدور بين الآراء معروضة يوشك ان يتجلى فيها صحيحها الابيقوري من غير تسبيق او تنويه الى من ينسبه كلاماً ودعوة ابيقورية كالعبارة المنقولة فوق والتي وضعها فرانس، وكأنه يتهكم ويخلط بين «زينونيا » ورومانيا او شوبنهوراً « ماكس برداوياء » في فم ابيقور ذاته ، واخيراً الى اخبث ما تصوّر في الابيقورية وما ألبسته من دعوى المحبة المفرقة المنحلة للشهوات البدنية ، وسلب الملذات مطلقاً كأعقل وأفضل مصرف للعيش ، وذلك فيما وضعه من اعترافات على لسان « فدموس » الفينيقي الخرافي ، ومن اختراع حروف الهجاء ومثاني مدنية الصناعة والتجارة والزراعة الاعلى في حضارة البحر المتوسط القديمة ومطلب جبابرتها في السلطة المطلقة والاخلاق برداء تعميم صفيق ، كل هذا وارد وصحيح من أمر هذا الكتاب ، ولكنه يتألف من تلك المجموعة الملونة ، كما أشرنا ، مخرج واحد لونه صفاء النور ، صفاء منطق ابيقوري سليم لا يحتمل سوء اظهاراً رائعاً أصيلاً لما ليس من الآراء والتعليلات مستقيماً في مجرى شعاعه

غير ان في الكتاب ، عدا هذا وذاك ، محاورة تمرض النقيض الابيقوري تماماً بعبارة فرانس الساحر ، هي آخر قطعة منه ، وكأنما الاديب الانساني أراد ان يرينا فلسفة معلمه القديم من معرفة صورة عن عكسها ، ذلك انه يعرّفنا بإيجاز وتهكم رحيم الى انسان رومانتيكي النزعة « روسوي » ، ونوعاً ما شعري « برناردين دي سان بيير » ، لا ابيقوري على طول الخط. هو نتاج فكري لاواخر القرن الثامن عشر الفرنسي، لكنه ظهر في أواخر التاسع عشر الفرنسي، متأخراً بحث في حساسية نفسه عن سير الزمان وعن معدّل حساسية التفكير في سبق سير الزمان لا أقل من مئة سنة ، وسبب ذلك ان فلسفة هذا الانسان أكثر ما تشكلت بتأثير أحوال خاصة معينة متأخرة فيه عن وقتها شذوذاً ، فأحاطت بجوانبه الشخصية بحيث ظهر اثر تغيرات قرن الثورة الصناعية عليه يطابق أفكار المدن والانكار في قرن الثورة الديموقراطية السابقة سابقه . وبكلمة أخرى من استعمال التعبير الماركسي : هو بقية باقية من الطبقة الوسطى الصغيرة الثامن عشرية الفرنسية ، او التاسع عشرية الالمانية، او الاوائل العشرينية في سوريا ومصر العربيتين، لكنه يتأتى في تمزق نفسه بحياة متغيرة في فرنسا التاسع عشرية ، فرنسة العنيا « البلزاكية » وبيئة « مدام بوفاري » و« القرية الناطقة » الفلوبيرية

وعن هذا فانسان محاورة فرانس ، الذي هو فيلسوف لم ينجح بين الناس ، قد ضجر من

حياة المدنية ، مدنية زحف وتغيرات الثورة الصناعية واستفحالها ونوع الحياة الرأسمالية العاجلة التي خلقتها ، الحياة المدخنة الكثيبة ، يذوب فيها نوع الفرد الذي لا يشعر بنفسه الا في ظهوره وضآلة محيطه كما تضيع النملة بين قبيلتها

كره صاحبنا بيتاً بليداً في صف في شارع من العاصمة ، فهجرها الى الريف . في الريف اشترى ديراً خرباً وسط عرصة تابعة له . وفي الدير عاش مع ذاته ، ناسياً كل عمل وعيش بين الناس . لا يقرأ عنهم الا بالصدفة ، لا يكتب ، لا يثقف حتى قطعة ارضه أو حديقته ، يتسلى ويقاوم الوقت بالكسل والنظر الطويل في معالم الهواء وغيوم السماء ، ويغذي نفسه بآراء كأنها نصائح التعزية ! فكلها تسفيه وتسخيف لكل ما يدعى او يترادف أو يقرب من أسماء مدنية وفن وثقافة وعلم وأدب ورقاء . لقد اصبح عنوان طلب البساطة في البقاء . لا يخدم شيئاً ، ولا يخدمه سوى فتاة حسناء ، منفوخة الخدين ، فارغة الرأس والقلب ، عنها وعن نفسه يقول لزائره :

— هي سعيدة ، وبها تعمل فطاهرة . فان العلم والمدنية هما قد خلقا الشر الجسدي يرافقه الشر الاخلاقي . اني لا اكاد اكون من السعادة مثلها ، اذ أني اكاد اكون من البلاهة مثلها . واذ اصبحت لا افكر في شيء ، فاني لم اعد أعذب نفسي . وإذ صرت لا آتي حركة ، فاني لا أخاف ان اسيء عملاً . حتى حديقتي لا اتقنها ، اشفاقاً من ان أتم فعلاً لا استطيع ان احسب نتائجه . وفي هذه الحالة اراني على تمام الاطمئنان »

فهذا الشخص ، كما ترى ، « روسو الجديد » يتكلم ، وان كان اصح كثيراً من روسو الشقي . والواقع هو في نفس الحالة التي يهرب ويظن نفسه بمنجى منها كما نرى من خبث دعابة فرانس . واذا قابلنا مثاله بأبيقور وجدنا ابيقور رجلاً واقعياً متمدناً لا ينكر الحياة ويتحفظ كالمومياء . هو يثقف عقله وحديقته يومياً ، ويبارز الفلاسفة ، ويعلم الناس . يعلمهم وربما بدون اجرة ، ويقدم حتى نفسه مثلاً . يعلم بأن على الانسان — لا قدرة فقط بل حتى شاء ام ابى وبالرغم مما في فكره — ان يعتني بحديقته . والا ، فالنتيجة الطبيعية : من اين يأكل ؟ ومن بعض فرط ألم الانسان هل يخلص ؟ عادياً متعادلاً ، حساساً ممتازاً ، ولد هذا المخلوق . ومن غابات المسجية وكهوف السباع فقيراً خرج ، لا طعام على مائدته ولا حائط يقيه العاصفة . وليس كل من جادت به امه في مدينة مكروهة بصاحب ثروة ، موروثة او « مرسملة » او مغضوب عليها ، فيشتري بشيء منها ولو ديراً مهجوراً مرصعاً سهلة ، ويكتري ولو فتاة بلهاء تطبخ له الزاد وتريه وجه المرأة

وهكذا ترى . لصاحبنا الذي سيعكس فرانس أفكاره دون أفكاره ، كنوع مبالغ في عقلية الرهبنة الاعتزالية التي تتوارى في وكرها إما لترضي الحياة وخرابها . كما أشار فرانس في

« حديقة أبيقور » الى حدوث ذلك في سبب ازدهار الرهبنة بانهيار امبراطورية روما ومعها جميع بلدان مدنية العالم القديم وأس الحياة فيه ، وإما لنفس منهوكة ، خيبة ، شاذة ، متقززة مُغرقة في توتراتها العصبية مما يحيط بها ، كما يظهر في اتجاه الافكار الروسوية ، وإما أخيراً بتأثير نواحٍ معتدلة من كلتي هاتين الحالتين معاً كما هو ظاهر في متفلسف فرانس هذا ، الذي مثاله الهرب من المخلوق البشري : التخاذل عن كل عمل ، الكسل الابدي اللذيذ ، روحه ذات أصرة — على وهن خيطها — بالروح العدمية المقتولة في بعض متشردي قصص مكسيم غوركي ، برغم الفرق الكبير بينهم وبينه . انهم في حركة أبدية قائمة محزنة ، وهو في سكون أبدي مخدِّر

على أن فرانس قد خرق منطق صاحبه هذا بطمئنته النجلاء : فبدد ما أوردت لهُ من كلامه فوق كما تبدد نفحة نسيم يجري من ارخبيل الاغريق شتات غيوم قطنية مندوفة في سماء صائفة . وذلك حيث يردُّ عليه ، في محادثتهما التالية ، بقوله :

— لو كنت في محلّك لما شعرت بطمأنينة . من قال لك ، يا صديقي ، بأن سكونك الى هذا الدير المغطى بالطحلب والعلاب ليس هو عملاً ذا شأن في مجرى الانسانية اعظم من مكتشفات جميع العلماء ، وذا تأثير حقيقة في المستقبل ؟ — ليس هذا بالمحتمل

— بل ليس بالمستحيل ! فأنت تعيش حياةً فريدة . انت تتحدث بكلمات غريبة قد يمكن ان تجمع وتطبع للنشر . وفي بعض الظروف لا يلزم اكثر من ذلك لكي تصبح ، بالرغم منك وحتى من دون ان يكون لك اي علم بالامر ، مؤسس دين يصبح إيمان ملايين من الناس ، فيجعلهم نساء واردياء ، ويذبحون باسمك الوفاً من خلق آخرين ! . .

— إذن على الانسان ان يموت كي يطمئن ويكون بريئاً

— حذار من هذا ايضاً : في عملية الموت إتمام فعل ذي نتيجة لا يمكن حسبان مداها ! »

هكذا جعل هذا المداعب الكبير فرانس ، هذا الابيقوري الأصيل ، المتسربل بحُجُبة موروثة في نفس الانسان عن عبقرية اخرى من اليونانيين ، عبقرية « بيرهون » ، ذلك الكاهن الاعلى في هيكل الشكوكيين ، ذلك الذي « كان ابيقورس ، في لغة معرب فينيلون ، يحب محادثته ومكالمته ويلتذ بسماع قصة معيشته واحواله » — اقول : هكذا جعل أناتول فرانس الابيقوري البيرهوني في نفس الرجل الساذج محدثه « مرساباً » بعد اكثر مما كان قد بلغ به . ما ابدع وارق نكتة فلسفته ! ألا ان عبيراً حلواً من نفس ابيقور يفوح عليها !

ولا غرو ، فإن هذا الشيخ الاشتراكي الرحيم قد كان ، فيما نعلم ، آخر وابدع كاتب لمع في عصرنا ولا يضير سمعة أبيقور انتسابه اليه ، ولا حديقته تفيئه فيها وتطلبه بين شكول ازهارها ، تحت فواكه غصونها وهينات ظلالها الوثيدة الميول